

العقيدة الإسلامية - الدرس (٦٣-١) : القوة الإدراكية وهي بحاجة لعالم داخلي وخارجي بينهما
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٨٦-٠٩-١٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين ، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم ، اللهم علمنا ما ينفعنا ، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً ، وأرنا الحق حقاً ، وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً ، وارزقنا اجتنابه.

من أصول العقيدة:

العقيدة تعد من أصول الإسلام والفقهاء من الفروع، فإذا صحت العقيدة صح العمل، وإذا فسدت العقيدة فسد العمل، فإذا اعتقدت أن الله تعالى قبض قبضة، وقال: هذه إلى الجنة ولا أبالي وهذه إلى النار ولا أبالي والقضية انتهت هذه العقيدة تثبط همة المؤمن.



إذا صحت العقيدة صح العمل

فالبحث في العقيدة مهم جداً بل هو خطير جداً، وهذا لا يعني أنني لم أبحث

موضوعات العقيدة خلال مدة طويلة بل بحثناها مئات المرات، ولكن بمواضيع متفرقة في: الخطب، والتفسير، والحديث، والسيرة وفي الدروس، أما بحثها على شكل موضوعات متكاملة ومتتابعة فسنبدأ الآن أول مرة.

١ - النفس:

جاء في بعض الأحاديث الشريفة أنه " من عرف نفسه عرف ربه "، فلنبدأ بالحديث عن النفس، التي هي بين جوانحنا والتي في الصدور، قال الله تعالى:

(وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

(سورة الملك الآية: ١٣)

هذه النفس التي هي ذات الإنسان، نتعرف بها أن الإنسان مخلوق من نوع خاص، فالكون كله ما في السموات وما في الأرض مسخرٌ له، فإذا كان الكون كله مسخراً له فأيهما أكرم عند الله،

الكون بأكملة أم هذا الإنسان الذي سخر له الكون بأكملة ؟ فالعقل يقول: المسخر له أكرم من الشيء المسخر، فقال الله تعالى عن الإنسان:

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا)

(سورة الإسراء الآية: ٧٠)

وأيضاً:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا)

(سورة الأحزاب الآية: ٧٢)

هذا الإنسان المكرم زوده الله بوسائل التكريم ومنها:

طرق تكريم الله للإنسان:

١- القوة الإدراكية:



للإنسان قوة إدراكية، فالحائط، والطاولة، والأحجار، والأشجار هذه الأشياء لا تدرك، فالإنسان مميز، ومفضل، ومكرم بهذه القوة الإدراكية. مثلاً: مجتمع القروى منذ وجودهم على الأرض وحتى الآن، هل طرأ على حياتهم تطور؟ فهل سكنوا في البيوت؟ وهل اخترعوا أجهزة؟ وهل نظموا مجتمعهم؟ فالقرود هو القرود، لم يتغير

ولم يتبدل، فالفرق الجوهرى بين الإنسان والحيوان هو القوة الإدراكية.

٢- الإدراك:

فالإنسان إذا عطل إدراكه عطل إنسانيته، أي إذا عطل إدراكه جعل نفسه في صف الحيوان، وهذا قول لا يحتمل المناقشة لشدة وضوحه ولشدة تشعب الموضوع، فلننبق في القوة الإدراكية التي خصها الله للإنسان والتي يتميز بها عن سائر المخلوقات ولاسيما الحيوان، ولها مشكلة،

أنها عالمة على العالم الخارجي والعالم الداخلي، وهي من دون عالم خارجي وعالم داخلي لا قيمة لها، حيث تتعطل وظيفتها.

نوافذ الإدراك:

٣- العالم الخارجي:

الله تعالى جعل لنا نوافذ تطل عليه، فالبصر نافذة، والشم، والسمع، والذوق، والإحساس بالحرارة والبرودة، وكذلك الضغط وجميع الأعصاب والحواس هي نوافذ القوة الإدراكية على العالم الخارجي، ولو تخيلنا أن إنساناً أوتي من الذكاء ما لم يوت أحد من العالمين وكان كيف البصر، فهل يستطيع أن يعرف اللون الأحمر، وما الفرق بينه وبين اللون الأخضر؟ نرى أن كلمة أحمر، وأخضر، وأزرق، وبنفسجي، وأبيض وغيره من هذه الكلمات لا معنى لها إطلاقاً عند هذا الكفيف، فهذه القوة الإدراكية تستعين بهذه النوافذ، لذلك ربنا عز وجل قال:

(وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا
لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ
فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ)

(سورة البقرة الآية: ١٧١)

إن القوة الإدراكية تحتاج إلى سمع وبصر وإلى نطق، فأى كائن أصم، وأبكم، وأعمى فهو لا يعقل، وهنا نجد أن هذه الآية تشير إلى ذلك، قال تعالى:

(إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ)

(سورة الأنفال الآية: ٢٢)

فهذا الذي خلق أصم أسأله؟ هل صوت البلبل أعذب أم صوت الغراب؟ فيقول لك: لا أعلم، وما نوعه؟ فهو لا يدري، لأنه لم يسمع صوت البلبل ولا الغراب، فمهما كان متميزاً بالذكاء، والنوافذ المظلمة على العالم الخارجي مغلقة فالإدراك منعدم.



هذه الحواس خلقها الله سبحانه وتعالى بقدر، قال الله تعالى:

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

(سورة القمر الآية: ٤٩)

فإنك عندما تريد شرب الماء تراه صافياً نقياً، فلو وضعت منه قطرة تحت المجهر لرأيت آلافاً، بل مئات الألوف من الجراثيم والبكتريات والعصيات، فماذا تستنتج؟ إن هذه القوة الإبصارية محدودة، فإنك تستطيع أن ترى الأشياء على بُعد مئة متر أو مئتين، ثم بعد ذلك لا ترى شيئاً، كذلك طبيب العيون يضع لك لوحاً على بعد خمسة أمتار أو أكثر، فتري فتحات الدوائر الكبيرة، حتى تصل إلى الحلقات الصغيرة فتقول له: لا أعرف، ويضع لك علامة " ١٠/٨ - ١٠/٥ - ١٠/٣ "، حيث إنك لا ترى أصغر من ذلك، إذاً القوة الإبصارية لها حدود قال تعالى:

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

(سورة القمر الآية: ٤٩)

وحودها من تقدير عزيز، عليم، خبير، بصير، حكيم، ولو زادت قوة الإبصار أكثر من ذلك لما رأينا في الأرض جمالاً، وبعض الأماكن في أنعم جلد بشري ترى جبلاً وودياناً ونبوءات، وعندما تم تكبير أنعم جلد بشري تحت مجهر يكبر ٣٠٠٠٠٠٠ مرة كان المنظر لا يُحتمل، فلو أن هذه العين كانت قوة إبصارها أكبر مما هي عليه لما كان في الأرض جمال، فقوة الإبصار المحدودة تعتبر نعمة من نعم الله عز وجل.

الهواء مثلاً يحتوي على صور، ومن يرى تلك الصور؟ الدليل على ذلك في أجهزة التلفزة الذي يلتقط الصور التي لا تستطيع عينك أن تراها، الفضاء مملوء بالصور، فقوة الإبصار محدودة وكذلك الهواء مملوء بالأصوات، فالبث الإذاعي في العالم العربي متعدد، وكل هذه الإذاعات أمواجها الصوتية مبنوثة في الفضاء، فجهاز المذياع يلتقط هذه الأصوات أما الأذن فلا تستطيع ذلك، وهذه من نعم الله عز وجل.

فلو كان السمع غير محدود لسمعت كل الإذاعات دون أن تدخل إرادتك في أن تسمع أو لا تسمع، لذلك فإن الله عز وجل من حكمته جعلنا لا نستطيع أن نسمع تلك الأمواج الصوتية، فلنفرض لو كان هناك سوق مليء بالضجيج، أو كان كل شيء على وجه الأرض يسمعه الإنسان

لكانت حياته مستحيلة، فتصور أنك تسمع أصوات أمواج البحر، وكل محرك يعمل، وكل انفجار، وكل صوت في الكرة الأرضية، من شمالها إلى جنوبها، ومن شرقها إلى غربها، مهما دق ذلك الصوت ! ولو تفكرنا في ذلك لعرفنا حكمة الله، ولعرفنا نعمته في جعل السمع لدينا محدوداً، ندرك معنى الآية الكريمة:

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

(سورة القمر الآية: ٤٩)

فالموجة الصوتية عندما تضعف وتتلاشى، هذه نعمة كبيرة لا تقدر بثمن،

الدليل: هناك موجة لا تتلاشى، فهم بعثوا مركبة إلى المشتري تسيّر

بسرعة ٤٠٠٠٠ كم في الساعة، وهي أسرع مركبة صنعها الإنسان، وبقيت في مسيرها إلى المشتري ست سنوات، وهو أحد كواكب المجموعة الشمسية، ومع ذلك من هناك بثت صوراً إلى الأرض، وهذه الصور بثت على شكل أمواج، وهذه الأمواج بقيت على حالتها، وسعة الموجة لم تقل، فإن الله قادر على خلق موجات تحافظ على سعتها، ولو أن الموجات الصوتية التي في الأرض بقيت محافظة على سعتها لأصبحت الحياة على وجه الأرض مستحيلة.

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

(سورة القمر الآية: ٤٩)

وهكذا السمع، والبصر، والشم، فالشم محدود أيضاً، فلو أن الإنسان يشم الروائح الكريهة لمسافات بعيدة كرائحة دابة ميتة في بلد آخر لأصبحت الحياة في بلدك مستحيلة، ولكن حكمة رب العالمين إذا كانت رائحة كريهة على بعد ٢٠٠ م فإنها تنتهي وتتلاشى، فراكب السيارة قد يشم رائحة كريهة في طريقه وبعد لحظات يبتعد عنها وتنتهي الرائحة، إذاً هناك محدودية للحواس.

إنكار الأشياء غير المحسوسة أمر غير علمي:

فهل ننكر الأشياء الغير محسوسة ؟ فمثلاً هناك أجهزة تطرد البعوض والذباب بواسطة أصوات يصدرها الجهاز تزعج البعوض والذباب ولكن لا يسمعها الإنسان، وتكون هذه الأصوات دون عتبة السمع، كما أن هناك أجهزة حديثة للقوارض تصدر أصواتاً لا يسمعها الإنسان ولكن القوارض تسمعها، فإذا سمعته هربت، ويستخدم في المستودعات، فهل يجوز للعاقل أن

ينكرها لعدم استماعه لها ؟ فتقول: إذاً إن الحواس محدودة لدى الإنسان، وهذه النقطة هي التي يجب أن نصل إليها، وقد قال علماء التوحيد: " عدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود ".

١ - الدليل:

هناك أجهزة تلتقط الصور التي لا نراها، فهل تستطيع أن تنكر ذلك ؟ فإذا قال أحد: إنني لا أرى الله، فأين هو ؟ فتقول له: إنَّ هذا هو الغباء والجهل بعينه، لأن عدم الوجدان لا يعني عدم الوجود، ولأن حواسنا محدودة لحكمة بالغة، ونستنبط من ذلك أيضاً أن الشيء الذي لا نراه يمكن أن يكون موجوداً، ويمكن أن يكون وجوده أخطر من



وجودك أنت لكنك لا تراه، ومن ينكر أن هناك قوة جذب بين الأرض والشمس حسب قانون الجاذبية، فهناك تجاذب بين الكتل المادية بحسب حجم الكتلة، فكلما كبرت الكتلة زاد الجذب، وكلما صغرت قلَّ الجذب، وهذه حقيقة مسلمٌ بها.

مثال: معلم أراد أن يثبت الإلحاد بين طلابه فقال: نحن لم نشاهد الخالق، فإذاً هو غير موجود، فتكلم طفل وقال لهذا الأستاذ: نحن جميعاً لا نرى عقلك الذي تفكر به، فإذاً أنت لا عقل لك، إن قياساً على هذه القاعدة الواهية أن العقل لا يُرى، ولكن نرى آثاره، وهذا شيء آخر في القوة الإدراكية.

٢ - العالم الداخلي:

إنك تكون بعض الحقائق من العالم الداخلي، ذلك لأن النفس تغضب، وتخاف، وترجو، وتفرح، وتحزن، وتقلق، وتستكبر، هذه المشاعر يدركها الإنسان عن طريق العالم الداخلي وليس عن طريق العالم الخارجي، إذاً هناك نوافذ داخلية ونوافذ خارجية، كالبيوت مثلاً فقد يكون لها نوافذ تطل على ساحة البيت و نوافذ تطل على الشارع، كذلك الإنسان له نوافذ تطل على العالم الخارجي منها يكون مدركاته، وله نوافذ تطل على العالم الداخلي ومنها يكون أحاسيسه.



إن للعقل حدّاً ينتهي إليه

ما هو الخيال ؟ هو القدرة على التصور، يتصور الإنسان أن له بيتاً يطل على حديقة وعلى جنبها أشجار سرو، وأشجار مثمرة متنوعة، وفي الحقيقة لا يوجد عنده شيء من ذلك، فما هذا الخيال ؟ فلو قلنا لإنسان: تخيل أن لك بيتاً، فإنه يتخيل مسكناً له سقف، وجدران، وأرض، فهل يستطيع أن يتخيل غير ذلك ؟ وكذلك لو قلنا

له: تصور حورية نصفها امرأة ونصفها سمكة، فإنه يستطيع تصور ذلك، لأنه يعرف المرأة ويعرف السمكة فيتصور ذلك، فالخيال البشري لا يستطيع أن يتصور شيئاً من لا شيء، إنما يستطيع أن يتصور شيئاً من شيء، من الممكن أن نتخيل شجرة لها أوراق، وتحمل بدل الثمار كؤوساً من شراب التفاح مثلاً، فالكؤوس موجودة وشراب التفاح موجود، الخيال في الحقيقة مرتبط بالواقع، فأحياناً يتصورون إنسان المريخ فلا يزيدون على أن له رأساً، وجذعاً، ويدين، ورجلين، إلا أنه قد يغير موضع العينين أو يكبر الرأس قليلاً، أو قد يغير في شكل الأيدي والأرجل، فهل يستطيع الإنسان أن يتصور رجل المريخ من دون رأس ورجلين ؟.

محدودية الخيال ليس دليلاً علمياً على رؤية الغيبيات:

إذا كنت لا تستطيع أن توجد صورة خيالية من لا شيء، فكيف بإمكان الإنسان أن يتخيل الجنة وهو لم يرها ؟ فالخوض في الغيبيات ليس من العقل، ففي الحديث القدسي عن الله عز وجل عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله:

((أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ فَاقرءُوا إن

شئتم (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين))

(أخرجه البخاري عن أبي هريرة في الصحيح)

فالخيال يجب ألا يجول في العالم الآخر، وذلك لأن الخيال لا يأتي إلا لشيء من شيء، أما من الجنة فلا نرى منها شيئاً، وقد قال العلماء: " نحن نكتفي بعالم الغيب بالخبر الصادق الذي ورد في كتاب الله "، لا أقل من ذلك ولا أكثر، فإذا كنت عاجزاً عن تخيل الجنة فهل تستطيع أن تتخيل ذات الله عز وجل ؟ لذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((تفكروا في المخلوقات ولا تفكروا في الخالق فتهلكوا))

٤- العقل:

عقلك مربوط بحواسك وخيالك مرتبط بالواقع ولن تستطيع التجاوز، وهذا الكلام يراد منه أن العقل أو الفكر البشري عندما يعجز عن الوصول إلى شيء فهذا لا يعني أن الشيء غير موجود، ولكن العقل الذي وهبنا الله إياه له طاقة محدودة، لحكمة بالغة أرادها الله عز وجل، مثلاً: ميزان يزن ٣٠ كغ تضع عليه سيارة، ينكسر ويتحطم، فهل نقول: إن هذا الميزان ليس جيداً؟ لا بل هو ميزان جيد ولكن مخصص للأوزان التي لا تتجاوز ٣٠ كغ وليس لسيارة، من هذا المثل يتضح لنا أن الإنسان عندما يكلف عقله فوق طاقته، ثم يخفق فالخطأ ليس في عقله بل في سوء استخدام العقل، لأن العقل مربوط بالواقع، والواقع فيه زمان ومكان، مثلاً يقال: إن هناك جريمة وقعت، فنقول مباشرة: متى وأين؟ فالعقل البشري ليس عنده إمكانية أن يتصور حدثاً إلا وله زمان ومكان، ولكن الخالق ليس كمثله شيء ولا يسأل عنه أين هو؟ لأنه خالق المكان ولا يسأل عنه: متى كان، لأنه خالق الزمان، فكلمة (متى) و(أين) في حق الله مستحيلة، لأنه خالق الزمان والمكان، فعدد السنين هذه من اختصاصنا نحن البشر، أما بالنسبة لله فالزمان صفر، لا يقيد به زمان ولا مكان.

محدودية العقل:

فالكون غير محدود، ولكن العقل لا بد من أن يكون محدوداً فأبعد مجرة توصلوا لها تبعد ١٨٠٠٠ مليون سنة ضوئية، وقد يكون هناك مجرات أخرى وبالنهاية فالكون غير محدود، ولكن العقل كيف يستطيع أن يدرك اللامحدود وهو الله عز وجل؟ لذلك قال:

(وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ)

(سورة البقرة الآية: ٢٥٥)

يقول الإمام الشافعي: ((إن للعقل حداً ينتهي إليه، كما أن للبصر حداً ينتهي إليه))، والإمام الغزالي يقول: ((لا تستبعد أيها المتكلف في عالم العقل أن يكون وراء العقل طور قد يظهر فيه ما لا يظهر في العقل))، لذلك فالكرامات موجودة، ولكن العقل



معرفة الله تكون عن طريق معرفة آثاره

بصدها محدود الزمان والمكان، فلا يمكن للعقل إدراكه ولكنه موجود، مثلاً قال الله تعالى في كتابه العزيز:

(قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ)

(سورة النمل الآية: ٤٠)

أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك، هذا عن عرش بلقيس فكيف يتصور العقل ذلك؟ تصور أنك تريد أن تنقله، فكم تستغرق من الوقت والجهد ومقدار الإمكانيات اللازمة لذلك؟ فالإنسان العاقل يعقل الحقائق التي ذكرناها سابقاً: "عدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود"، إذاً إن الفكر البشري محدود بالحواس، وخياله يمهده من الواقع والواقع محدود، فأنتى لهذا الفكر البشري المحدود بالحواس والحواس يحدها الواقع أن يدرك اللامحدود، معرفة الله لا تكون إلا من معرفة آثاره فقط أما معرفة ذاته فمستحيلة، ومعرفة الذات كما لو وضعت ورقة رقيقة جداً في فرن لصهر الحديد، وقلت: ماذا حل بها؟ فالإنسان عاجز عن معرفة ذات الله، ولا يُحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء. ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أحاديثه:

((إذا ذكر القضاء والقدر فأمسكوا))

لا تبحثوا في ذات الله عز وجل وبعلمه فهو يعلم بلا كيف، وهذا اختصار للبحث في علم الله الذي لا يمكن أن يدركه عقل أي إن هناك أسئلة خطيرة في العقيدة ينبغي أن نقف عندها ونقرأ:

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ)

(سورة الإخلاص الآية: ١-٤)

فهناك موضوعات من اختصاص الفكر البشري، وهناك موضوعات فوق الفكر البشري يجب عدم الخوض فيها، وإذا عجز الفكر عن إدراكها فلا ينبغي أن ننكرها، لأنه كما قلنا: "عدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود".

والحمد لله رب العالمين